من نسل القلم

تكاد أن تصاب بالجنون من صرير كرسيك حين يدور حول محوره يمينًا ويسارًا، فتلعن الفكرة التي راودتك يومًا ما جراء الملل بأن كرسيك له صرير من الأساس! الفكرة التي استمعت لها حرفيًا، واستقرت في نفسك يقينًا، فظللت يومين تلهو بالصرير الوهمي لساعات كاسرًا ملل العمل المكتبي، تدور ما بين يمينك حيث وضعت صورة ولديك الصغيرين في إطار ذهبي أنيق استقر هنالك منذ أن انتقلت أنت إلى هذا المكتب، وتواصل الدوران إلى منتصف المكتب حيث يستقر الحاسوب الحديث بخلفية سوداء قاتمة على عكس خلفية حاسبك الشخصي التي جعلتها زوجتك صورة لكما أمام الشاطئ؛ من مجموعة الصور التي التقطت لكما في آخر مصيف قضيتموه بالساحل الشمالي، وفيها تدعي أنت الابتسام بجوار ابتسامتها البلهاء للكاميرا وهي تتخيل اللحظة التي ستقوم بعرض هذه الصور على صديقاتها، متفاخرة بما أنفقت أنت من مدخراتك في هذا المصيف التعيس، ثم تنتهي بيسارك لتسترق النظر عبر زجاج المكتب إلى الردهة المقابلة حيث يهرول السعاة بين الغرف لتلبية ظمأ الموظفين إلى الكافيين أو الماء، بينما يخرج أحد أولئك الموظفين من مكتبه ليلبي نداء الطبيعة، أو ليقدم لفافات التبغ قربانًا لإله ما يستجديه النيكوتين اللازم لمواصلة اليوم دون خسائر عصبية أو مادية. وبين هؤلاء أحد العملاء يسعى من غرفة لأخرى طالبًا إنهاء ورقة ما، غالبًا ما تدعو الله ألا يطرق بابك، لكنك تدقق النظر هذه المرة في المرأة التي تتحرك بخفة بين الواقفين، شيء ما يجعلك تتمنى أن تكون آتية لك، لا ترى وجهها بوضوح من بعيد لكنك تشعر بجاذبية ما فيه، تحرك كرسيك من اليسار إلى اليمين لتتابع ولوجها إلى غرفتك -إن فعلتْ- دون أن يصدر الكرسي أي صرير هذه المرة، تبهجك طرقتان على الباب فتتسارع أنفاسك، تسمع الصوت يلقي بالتحية قبل أن ترى وجهها، فينشغل قلبك بالتذكر عن مواصلة النبض بعد توقف عقلك لحظيًا عن العمل، وعند اكتمال بدر التمّ واتصال العينين بالعينين، تتوقف أنفاسك، وتتضاءل، حتى تغرق في بحور هذه الحوراء، تمامًا... كالمرة الأولى.

* * *

صراخ الأطفال الهيستيري يصم الآذان ويصيبني بالتوتر، أسرع السير لمواكبة خطوات وكيل المدرسة وهو يقودني إلى فصلي في مدرستي الجديدة (الصف الثالث الابتدائي؛ أن تكون في مرحلة وسطى بين سهولة ترك أصدقاء المدرسة القديمة الذين لم ترتبط بهم بشكل كاف، وصعوبة البدء من جديد)، أحاول أن أتخيل اللحظات الأولى، فتْح الوكيل للباب وإعلانه عن الطالب الجديد "خالد أبو الفتوح" الذي انتقل إلى المدرسة، ثم وصيته للطلبة بي خيرًا، فأتقدم في صمت لأجلس في آخر مقعد وينبذني الجميع نافرين من نقيصة ما بي، ويكرهني المعلمون، ويفضلون طلبتهم السابقين عليّ، لأظل أعاني ويلات الوحدة بقية العام، أحسست بالضيق من كوني وحيدًا في مجتمعي الجديد، وكدت أن أطلق لدموعي العنان لكني تماسكت بسبب وصولنا للفصل، حقيقة لا خيالا، اللحظات الفاصلة بيني وبين عالمي الجديد تمر ببطء، الفصل شبه الصاخب، والمعلمة التي تكتب شيئًا ما على السبورة بينما يتقاذف طالبان قطع الطباشير، ويأكل آخر قضمة من شطيرته في خفية ويلكز النائم بجواره ليستيقظ خوفًا من الوكيل الذي قد يبطش بهما إن رآهما.

تمامًا كالمرة الأولى، أول الوجوه الملتفتة لك كان وجهها، عيناها الضاحكتان أسرتك، سلبتا عقلك، لم يخلُ وجهها من فضول تجاهك، لكن الابتسام كان الغالب عليه، تلك الحوراء ذات الشعر الأسود الفاحم التي

انشغلت بها عن روع الموقف والارتباك، وما إن سُمح لك بالدخول اخترت مقعدًا موازيًا لها وجلست، بينك وبينها ممر يسمح للمعلم بالمرور بين الطلبة، ولم تهتم بمن يجلس بجوارك ولم تدرك وجوده إلا بعد حين. ومازلت تذكر أنك قضيت الحصة بأكملها محدقًا في السبورة دون أن تدرك حرفًا مما يقال، لكنك وجدت في اختلاس النظرات خير معين على ما كان بك.

* * *

تطفو فوق بحر عينيها الأبيض ذي الجزيرة السوداء، لتخاطبها بنبرة متفاجئة، فرحة، وجلة، فترد عليك بثباتها الفَرِح المعتاد، مزيج لم تسمعه إلا منها، وإن تلمست فيضًا زائدًا من السعادة بين ثنيات الصوت، أو أنها أمانيّك تحاول أن تقنع نفسك بها، تدعوها للجلوس، خاتم في بنصرها الأيسر يغنيك عن السؤال، فتريها صورة ولديك دون مقدمات أو أسباب، تسألها عن السنين ما فعلت بها، تسترجعان آخر مرة التقيتما فيها، بينما تطرد أنت هاجسًا يسيطر عليك يدفعك للرغبة في الاعتذار، حديث موجز عن الأصدقاء، تسألها عن الفتيات اللائي صرن نساءً، وتسألك عن الأولاد الذين صاروا رجالا، لكن الصلات قد تقطعت بينك وبين من كانوا لك أصدقاء فتتهرب من وصف "المتخلي" بالتعلل بالمشاغل، بينما كانت تجيب هي عن أسئلتك إجابات وافية، تطلب من الساعي مياه غازية لها وكوبًا من القهوة لك، تحاول الرفض لكنك تصر. تسألها عن سبب الزيارة فتخبرك بما تريد، تدور بالكرسي دون صرير باتجاه الشاشة، تبدل الخلفية السوداء لا إراديًا بصورة تتداخل فيها الألوان كما تتداخل المشاعر داخلك الآن، تختلس نظرة إليها وتحاول البدء فيما تطلب منك أن تفعله.

* * *

ثلاثة أعوام لا تذكر منها سوى الفتات، ضوء يومض في عقلك يذكرك بلحظات منفصلة دون مقدمات أو نتائج، كنسيج الأحلام؛ لا تدرى أين البداية وإلى ما آلت النهاية، مع وجود استثناءات لذكريات كاملة متكاملة لم تنسها ولم تنسَ تفاصيلها.
تركضان سويًا بين جنبات المدرسة باحثين عن معلم اللغة العربية بعد انتهاء اختبار الشهر ليفصل الجدال بينكما على إجابة سؤال القراءة، بحثك عن ذريعة للتواجد معها دائمًا، التخفيف عنك بعد حصولك على درجة سيئة في اختبار الرياضيات رغم حصولها على درجة أسوأ، تنظر لها وهي تبتسم لك بكل جوارحها، فترغب في الابتسام لكنك تخجل فتواصل الصمت ورسم علامات الحزن على وجهك. سيرك خلفها في الطرقات دون كلام يومًا ما، مع أنك إن خاطبتها لردت عليك واتصل بينكما الحديث لينًا، اليوم التالي حين اشتكتك إلى معلمة الدراسات المتدينة بسبب ما فعلت رغم ما بينكما! ملمس العصا وهي ترتطم بباطن يدك في ذلك اليوم الشتوي بسبب شكواها، ورغم ذلك لم تحزن ولم تتخاصما! سعيها خلفك بينما تسير مع أصدقائك لتخبرك بشيء ما، بينما تترفع عن محادثتها طلبًا للشعور بكبر السن وعدم جواز مخاطبة الفتيات في الطرقات، فرحة الجلوس جوارها متقاربين، لا تذكر السبب، ولكنك تذكر مدى سعادتك يومها، بحثك أيامًا عما تفعل حين تخرجون من الفصول في منتصف اليوم، ضيقك عندما تشاهدها تخاطب أحدًا غيرك، ملمس وجنتها على شفتيك حين قبلتها في ذاك اليوم الحار، مذاق الخجل الذي انتقل إلى فيك يومها، والدفء الذي كانت عليه، احمرار وجهها بعد ذلك ورفضها محادثتك ليوم كامل، رغم أن نظراتها إليك لم تبح بأي

ضيق أو غضب، لكنكما لم تتصرفا بعد ذلك كأحبة، بل استمرت العلاقة بينكما كما كانت؛ لا هي صداقة ولا أخوة ولا محبة، خليط من بين كل هذا.

* * *

أنهيت ما طلبت من أورق وقمت بطباعتها، وضعتها بجواري رغبة في مواصلة الكلام، لم تبد اعتراضًا أو تعجلا للرحيل، لكن الصمت الذي كانت عليه، واستقبال الأسئلة بابتسامة محايدة وإجابة موجزة، وعدم طرح أسئلة أو جذب أطراف للحديث حين جربت الصمت دفعوني لإعطائها الأوراق وإعلان استعدادي لإنهاء أي مشاكل لها في الشركة بصدر رحب بينما تجلس هنا في مكتبي دون عناء، شكرتني دون إطالة، طلبت توقيعها على الأوراق بينما التقط قلمًا من على الطاولة الصغيرة المجاورة للمكتب وتفتح هي حقيبتها لتخرج واحدًا، فيعود الوسواس اللعين ليدفعني للاعتذار، ولكن كيف؟ وهل يجوز الاعتذار على غباء طفولي؟

* * *

أجلس مع زميل لي على الطاولة، وهي بمواجهتي وبجوارها فتاتان أخريان، نحاول فك طلاسم ورقة أسئلة مسابقة ما تم إجبارنا على المشاركة فيها وقد أحضرونا من بيوتنا قبل العيد بيوم والمدرسة خاوية من الطلبة، أكتب الإجابات بقلم ثمين أعطانيه أبي منذ عام كهدية لعيد ميلادي، ولا أستخدمه سوى في إجابة امتحانات نصف العام والعام، وقررت أن أحضره معي في هذا اليوم. أبدت هي إعجابها بالقلم قبل أن تبدأ المسابقة، فتركته لها تجيب بعض الأسئلة حين كلت يدي من الكتابة، لحظات وأتى أحدهم لنزع الورقة من بين أيدي المجموعات المشاركة في المسابقة، وبينما ننتظر إعلان النتيجة خرجت لمخاطبة المشرف على مجموعتنا ثم عدت مرة أخرى، أخذت أبحث عن القلم فلم أجده، سألتها عنه فلم تجب، بحثت ثانية، ثم تشاجرنا وطلبت منها أن تحضره لي بينما نفت هي أن تكون لصة، وبينما نحن على ذلك أحسست بحذائي يرتطم بشيء ما، ولما نظرت وجدته قلمي وقد كان تحت الطاولة.
مرضت أنا أثناء العيد ولم أذهب للمدرسة أسبوعين بعدها، لأعود مع بدء موعد أداء اختبارات آخر العام، لم أقابلها وقتها، ولم أقابلها بعدها، أنهت سنتها الأخيرة في المرحلة الابتدائية معنا ثم رحلت إلى مدينة مجاورة، وحين رأيتها في الشارع في المرحلة الثانوية، كان قد حرم علينا مخاطبة الفتيات اللائي من نفس عمرنا كتقليد قروي سخيف، فاكتفيت باختلاس النظرات من بعيد.

* * *

مددت يدي بالقلم كي توقع الأوراق، فنظرت له للحظات، ومترددة تركت ما كان بحقيبتها وأمسكت به لتخط باسمها على المساحة البيضاء بأسفل الورقة، وحين مدت يدها تعيده إليّ، طلبت منها أن تبقيه لديها كتذكار من صديق قديم، وقد علمت أنها تذكر.